لبنان والتحرير والصراع والأزمات

حرره: بري روبين

مراجعة: جيريمي سولت

يتساءل المراجع: لماذا قررت شركة بالغريف ماكميلان نشر هذا الكتاب؟ هل كان الغرض إنتاج عمل يركز على المحافظين الجدد المناهضين لسوريا، وحزب الله، وإيران في مجلد واحد؟ إذا كان هذا هو الحال، فقد نجح هذا العمل نجاحًا كبيرًا. وهناك إسهام أو إسهامان جيدان؛ دراسة مارك فرحة القصيرة والمتوازنة حول التركيبة السكانية اللبنانية، ومقالة تشارلز بول فروند حول الموسيقى الشعبية اللبنانية. ويكتب توني بدران ونمرود رافائيلي بدراية، وعلى التوالي، عن الميليشيات في لبنان والمشكلات الاقتصادية، ولكن الكثير من هذه المقالات كان من الممكن أن تأتي مباشرة من مؤسسات الفكر الإسرائيلية أو الأمريكية. فليس من المستغرب أن هذه هي خلفية الكثير من المساهمين.

اتهامات روبين ويليام هاريس، الأستاذ في جامعة أوتاغو في نيوزيلندا ومؤلف فصلَي "تأملات في لبنان"، و"جولة لبنان المتقلبة" – ضد سوريا تركز على اغتيال رفيق الحريري رئيس الوزراء اللبناني الأسبق في عام 2005، ورغبة سوريا في الهيمنة على لبنان من خلال زعزعة استقراره. وفقًا لروبين، جاء اغتيال الحريري على أنه عمل انتقامي لسوريا بسبب الضغوط التي تمارس داخل لبنان لسحب القوات السورية من الأراضي اللبنانية. يطلق هاريس على سوريا "راعي قتلة الحريري". وترتكز الاتهامات على التقرير الأول لديتليف مهليس المحقق الألماني الذي عينته اللجنة المستقلة الدولية للتحقيق التابعة للأمم المتحدة. جوهر هذا التقرير غير المهني بشكل واضح هو أن عملاء المخابرات السورية كانوا منتشرين في لبنان في كل مكان، والاغتيال لم يكن ليحدث بدون علم سوريا، ومن ثَمّ، بحكم الواقع، فإن سوريا لا بد أن تكون الفاعل. ومع ذلك فإن مليس لا يدقق في الاحتمالات الأخرى. فإسرائيل ووكالة الاستخبارات الأمريكية CIA لها تاريخ طويل من الاغتيالات، أو محاولات الاغتيال في لبنان، وعملاؤهم أيضًا في كل مكان. في مارس عام 1985، لقي ما بين 80 و105 أشخاص مصرعهم في محاولة فاشلة لوكالة الاستخبارات الأمريكية CIA لاغتيال السيد محمد حسين فضل الله، الذي يطلق عليه "المرشد الروحي" لحزب الله، في انفجار سيارة مفخخة في بيروت زرعت قرب شقته والمسجد الذي يخطب فيه كل يوم جمعة. كذلك، فإن سجل الموساد من الاغتيالات في لبنان وأماكن أخرى معروف، ولا يحتاج إلى تعليق. بالتأكيد المباحث تبدأ دائمًا تحقيقاتها من خلال النظر في جميع المشتبه فيهم. ومع ذلك، فإن مليس لم يكلف نفسه هذا العناء، واتهم مباشرة سوريا. لقد كان هذا الاغتيال الذريعة التي استغلتها الولايات المتحدة وإسرائيل لسحب القوات السورية من لبنان. لو كانت سوريا قد منحت أعداءها مثل هذا السلاح، ولو سودت اسمها باغتيال الحريري، لكانت قد استمرت في قتل المزيد

من المناهضين السياسيين والعسكريين والإعلاميين لسوريا؟ إذن لصالح من تم اغتيال الحريري؟ بالتأكيد ليس سوريا.

في هذا الكتاب تجاوزت الاتهامات ضد سوريا بعض الحقائق الثابتة. في أبريل 2009، بعد أكثر من شهر من تولي المحكمة الدولية محاكمة المتهمين اللبنانيين الأربعة الموالين لسوريا الذين اعتقلوا بتهمة التواطؤ في اغتيال الحريري، أمر القاضي دانيال فرانسين بأنه ينبغي الإفراج عنهم بسبب عدم كفاية الأدلة. ولم يتم اتهام أي شخص آخر. ولم تظهر أي علاقة بين الاغتيال والحكومة السورية أمام المحكمة. أما بالنسبة لسوريا ورغبتها في زعزعة استقرار لبنان، فإن روبين وهاريس لا يذكران أنه تمت دعوة سوريا إلى لبنان في عام 1976 كقوة "ردع" من قبل جامعة الدول العربية. لم يكن أحد أكثر سعادة لرؤية القوات السورية على الأرض من الميليشيات المارونية، التي كانت منهزمة أمام القوى اليسارية الفلسطينية واللبنانية مجتمعة. ولم يكن هدف حافظ الأسد زعزعة استقرار لبنان، بل تحقيق الاستقرار فيه، ومنع أي تغيير جذري في ميزان القوى الذي من شأنه أن يعطي إسرائيل ذريعة للتدخل. في أكتوبر 2008 أخيرًا اعترفت سوريا دبلوماسيًّا بسيادة لبنان. وفي ديسمبر 2009 زار نجل الحريري رئيس وزراء لبنان المنتخب مؤخرًا سعد الحريري دمشق، وأخبر الرئيس السوري بشار الأسد أنه يأمل في إقامة علاقة إستراتيجية مع سوريا، لتمكين البلدين من الدفاع عن أنفسهم ضد إسرائيل .هل غيّر الحريري أفكاره فيمن كان يعتقد أنه قاتل والده؟ في مقالته الخاصة حول لبنان "حزب الله في لبنان: بين طهران وبيروت، بين النضال ضد إسرائيل والصراع من أجل لبنان"- يكتب إيال زيسر أن 'نظرة' إلى لبنان بعد الهجوم الذي شنته إسرائيل في عام 2006 ستكشف عن دولة على شفا حرب أهلية مهددة بالتمزق. وفيما يتعلق بحزب الله، فإن القتال قد "أنهى نجاحات ومجد المنظمة". وفي ملخص زيسر: "في أثناء وبعد القتال، وجد حزب الله نفسه في صراع شاق وصعب للحفاظ على مكانته واستعادتها في المجتمع الشيعي، في لبنان وفي العالم العربي كله". في الواقع، شجاعة حزب الله ووقوفه في وجه إسرائيل لاقت تأييدًا كبيرًا في العالم العربي طوال فترة الحرب وبعدها، سواء من قبل السنة أو الشيعة على حد سواء. ولم تحظ شخصية بشعبية كبيرة في الدول العربية مثل ما حظي به السيد حسن نصرالله. لكن القادة العرب لم يرحّبوا بأفعاله، ولاسيما حسني مبارك والملك عبد الله ملك المملكة العربية السعودية. أما في لبنان، فأنشطة حزب الله في تقديم المساعدات لضحايا الهجوم الإسرائيلي الجوي على بلدات الجنوب وبيروت- عززت مكانته بين أبناء الشعب اللبناني بشكل عام. كما شرع حزب الله في النهوض بعلاقات الجوار مع الطوائف المسيحية في لبنان، ومع الدروز الذين يتزعمهم وليد جنبلاط الذي تخلى مؤخرًا عن مناهضة سوريا من أجل تحالفه السياسي مع ما يعرف بالتيار الرئيس اللبناني. والآن ينظر إلى حزب الله على أنه حركة وطنية للدفاع والمقاومة، ويدعمه ما يقرب من 25 في المئة من المسيحيين. وتم تهميش 'حلفاء' إسرائيل داخل لبنان تمامًا، خصوصًا الكتائبيون. لبنان، بعيدًا عن التشرذم، كما قد يتوقع المرء من قراءة فصل إيال زيسر متحد كما لم يحدث من قبل، ولهذا السبب ترى إسرائيل أن هذا الاتحاد أكبر "تهديد" لها من أي وقت مضى.

هذا الكتاب لا يأخذ بعين الاعتبار دور إسرائيل العنيف والمدمر داخل لبنان على مدى العقود الستة الماضية. فقد أودت الهجمات والاجتياحات والاغتيالات بحياة عشرات الآلاف من المدنيين اللبنانيين. وإذا ما قورنت هذه الأفعال العدائية الإسرائيلية، بما يقوم به حزب الله، فلا تعد أفعال حزب الله "إرهابًا". لم تسفر سياسات إسرائيل عن تقسيم لبنان أو جعل لبنان تحت سيطرة حكومة عميلة، بل أدت إلى جعل لبنان أقوى بكثير مما مضى. في الثمانينيات، أخفقت إسرائيل في فرض إرادتها على لبنان؛ لأنها أخفقت في إدراك ما أدركه حزب الله:

أنه لن يستطيع أي فصيل أن يخطو خطوة خارج الإجماع التاريخي لاستقرار لبنان. في عام 2000، انتهى الاحتلال الإسرائيلي لجنوب لبنان بعد فترة طويلة من كفاح حزب الله، وليس من قبل الأمم المتحدة التي تجاهلت إسرائيل نداءاتها المتكررة بالانسحاب. وقد أودى هجومها على لبنان في عام 2006 بحياة 1400 شخص، ثلثهم من الأطفال، وتكرر هذا العمل المشين خلال هجومها على غزة (ديسمبر 2008 – يناير 2009). حتى يومنا هذا، كل ما فعلته إسرائيل في لبنان لم يفلح. على العكس من ذلك، أصبح خصومها أقوى من أي وقت مضى. بطبيعة الحال يتجاهل هذا الكتاب الدور الإسرائيلي في أزمات لبنان المتلاحقة، وفلسطين، وتهجير غالبية السكان الفلسطنيين في عام 1948. لقد شهد لبنان دومًا العديد من المشكلات، بسبب النظام "الطائفي" الغريب الذي وضعه الفرنسيون في العشرينيات، ولكن بمجرد أن حاول الفلسطينيون الذين يعيشون في مخيمات للاجئين داخل لبنان الكفاح المسلح لاستعادة حقوقهم، ظهرت ما يسمى "بالمشكلة الفلسطينية". خلال الهجوم على غزة، رأى المؤرخ الإسرائيلي آفي شلايم أنه "من الصعب مقاومة الاستنتاج" بأن إسرائيل أصبحت دولة مارقة. ويقول آخرون إنها كانت دولة مارقة منذ البداية. فقد تجاهلت القانون الدولي، بشأن حقوق الإنسان والحقوق المدنية للفلسطينيين، ولبنان لا يقل أهمية عن غزة؛ فقد عانى بشكل فظيع بسبب السياسات الإسرائيلية الظالمة.

عاجلًا أو آجلًا ستصبح وحدة لبنان الحديثة محل اختبار. إسرائيل دولة قوية للغاية، ولم تتردد أبدًا في استخدام أي وسيلة تمتلكها، سواء كانت عسكرية أو دبلوماسية لتحقيق أهدافها. كما هددت شخصيات بارزة في المؤسسة العسكرية الإسرائيلية أن العدو في المرة القادمة لن يكون حزب الله ولكن لبنان نفسه، وأن "إستراتيجية الضاحية" (الضاحية التي تقطنها أغلبية شيعية في بيروت والتي سحقتها إسرائيل جوًّا خلال حرب عام 2006) سوف تتكرر وعلى نطاق أوسع. وقد خدم هذا حزب الله بأن إسرائيل تستعد للجولة القادمة. على كل حال، من ناحية التاريخ السياسي الحديث، فإن جميع العناصر التي من شأنها أن تمكن القارئ من التوصل إلى فهم متوازن لأسباب الصدمات التي مرت بها لبنان في العقود الثلاثة الماضية مفقودة في هذا الكتاب. وينبغي اعتبار كتاب (لبنان والتحرير والصراع والأزمات) عملًا فكريًّا يستخدم لبنان منصة للمضي قدمًا في الحملة الإقليمية والعالمية التي تقوم بها الولايات المتحدة وإسرائيل ضد حزب الله وسوريا وإيران.